رحيل ام سعد: كلمات وفاء لها ..." وللشعب والمدرسة"

الأمومة والاحلام المستعادة

آني كنفاني

أم حسين أيّتُها الغالية ،

لقد كنت أمّا لنا جميعاً، وكان حنانُك بلا حدود، وقلبك الكبير نابضاً على الدوام حتى اليوم الأخير. واليوم لم تعودي بيننَا، لكنّك ستظلين معنا في ذكرياتنا ومشاعرنا وأحلامنا.. أذكر دائماً حضورَك الممتع في بيتنا منذ اليوم الأوّل حين جئت لمساعدتنا في أعمال المنزل. فلقد أحطت ليلى بعنايتك، حين كان غسان يعمل في الجريدة وكنتُ أنا وابني فايز في مدرسة الأطفال حيث كنتُ أعمل. وكنّا نعود إلى البيت فنشمّ رائحةَ الوجبات الشهية التي كُنت تطهينها لنا.

كثيرة هي الأمور التي أخبَرْتنا إياها عن عائلتك وجيرانك في مخيّم برج البراجنة: عن مأساتهم اليومية ونضالهم اليوميّ. وذات يوم جئت لتخبرينا بصوت هادئ، لكنْ فخور، أنّ ابنَك «قد غادر المخيّمَ والتحق بالفدائيين ليحارب محتلي وطننا الحبيب فلسطين».

وذات يوم آخر جلسنا معاً ورويتِ لي قصةَ حياتك يا أم حسين. لقد وُلدتِ في الغباسيّة، وهي قرية صغيرة قرب عكّا، وأسماكَ والداك «آمنة». وما إن صرت في الثالثة عشرة حتى خُطبت، وبعد عامين تزوّجتِ وانتقلت إلى حيثُ تسكُن عائلةَ زوجك في قرية دنون. وكنت تعرفين عائلة غسّان منذ نعومة أظفارك، وجلستِ عدة مرات مع أفرادها.

وحكيتِ لي عن الحياة الخيّرة في فلسطين، عن الأرض والزّرع والفواكه والحيوانات والناس. وتحدثتِ كذلك عن الناس في القرى المجاورة، أعني العربَ اليهود. فهؤلاء عاشوا أجيالاً في فلسطين، إلى جانب المسلمين والمسيحيين الفلسطينيين العرب:

ليتنا لم نترك دنون. كنا على علاقة حسنة مع جيراننا اليهود: عملنا في الأرض معاً، وأكلنا معاً ، وتعاونّا دائماً.

لقد حطّم الصهاينةُ - لا جيراننا اليهود - كل شيء. وتوسل إلينا مختارالقرية المجاورة ألاّ نرحل وبكى حين أُجبرنا على مغادرة قريتنا. ونحنُ نعلم أنّ القرويين اليهود اعتنوا ببيوتنا وبأرضنا ما يزيد عن العام آملين أن نعود اليها. لقد كُنا شعباً فلسطينياً واحداً. وإن شاء الله سنعود إلى قُرانا ونعيش مع جيراننا من جديد.

لكنّه كان عليك أن ترحلي من وطنك الحبيب بصحبة أطفالك الخمسة وبقي أبو حسين في ساحة القتال. وحَمَلْتِ بعضَ ما كنت تملكينه. طنجرةً كبيرة وصحوناً لتُطعمي أطفالك أثناءَ الرحيل، وجئت ببقرة وحمار أيضاً.«كان علينا أن نختبئ حين تقصفُ الطّائراتُ الطرقَ. لقد قُتل الكثير من اللاجئين، أو جُرحوا، أو ماتوا تعباً. ووصلنا لبنان. ولحق بنا أبو حسين حين نَفَدتْ ذخيرته؛ فالإنسان يُقاوم ما دام يملك السّلاح، فإذا انعدم السّلاح فإنّ عليه أن يهرب. لقد خسرنا كُلّ شيء: بيوتَنا وحيواناتنا وأرضَنا. وأعطونا خيماً، لكنّ العاصفة مزّقتها هي أيضاً».

وواصلتِ نضالَك الصّعْبَ منذ اليوم الأوّل لفرارك من إرهاب الأعداء. فعملتِ بكدّ لتُطعمي ولتَحمي أطفالك الخمسة الّذين أضفتِ إليهم خمسةً آخرين أنجبتهم في لبنان. ورفضت أن تستسلمي. لم تفقدي الأمل في العودة إلى فلسطين، لكنّك تعبت!

وخلال قصف مُخيّمَ بُرج البراجنة وحصاراته المُتواصلة، لم تتخلّي يوماً عن العناية بالآخرين. فكُنتِ

تحرصين على أن يختبئ أطفالُك الأحدثَ سنّا والأحفادُ الذين يعيشون معك ومع أبو حسين في الملجأ، وكُنت تعودين إلى بيتك الصغير وتقبعين بانتظار توقُّف «المطر».

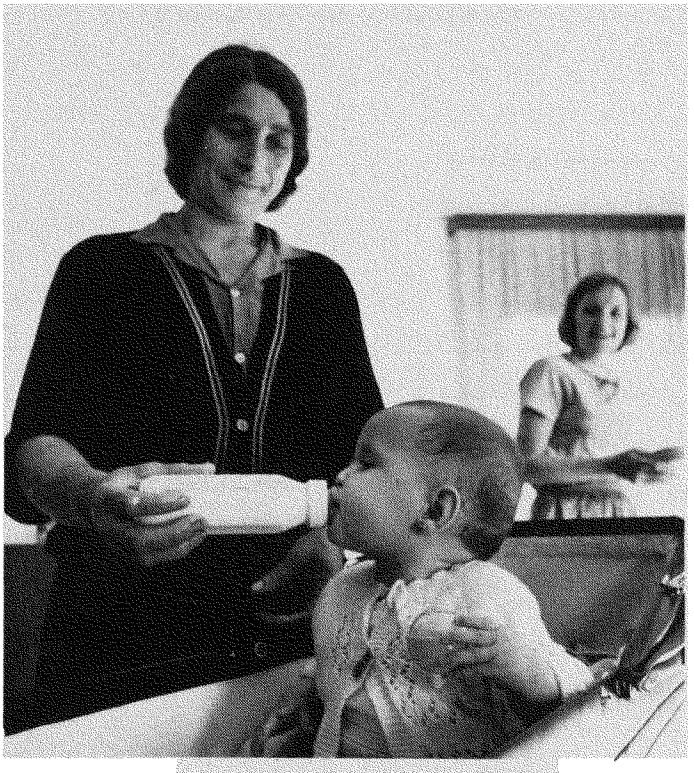

أم سعد وليلى كنفاني، والى الخلف آني كنفاني

ولقد كُنت بالنسبة لغسان رمزاً للمرأة الفلسطينية الشجاعة، ابنة المخيم والطبقة العاملة، ورمزاً للثورة... وألْهَمته رواية **أم سعد**. فأنت، الأُمّية الشجاعة الرائعة، علّمت غسان حقيقة حياة الشعب الفلسطيني في المخيمات كما لم يعلّمه أحد. ولهذا فقد أهدى روايته إليك بالكلمات التالية: «إلى أم سعد: الشعب والمدرسة». ولقد أحبّك غسّان كما لو كنت أمّهُ؛ بل لقد صرت أمّه بمعنى من المعاني، وصار ابناً لك. وذات أمسية قعدتُ مع ابنتَي ليلى وابني فايز، وقال فايز:

اذكرُ أنّ ابي وأم حسين كثيراً ما جلسا معاً وتحدّثا طويلاً. بل اذكرُ الحميمية التي ربطت واحدهما بالآخر؛ فلم يكن هناك ضرورة لأن يتحدّث الواحدُ منهما للآخر. كانت تطبخُ في المنزل أو تزرع بيديها الخشنتين اللطيفتين حديقتَنا الصغيرة، وكان هو يكتب رواياته أو مقالاته؛ فاشعر بالتواصل بينهما قوياً ثابتاً!

وأردف فايز قائلاً «لقد كانت أم حسين امرأةً حنونة، وممتلئة، وقوية، ونموذجاً للأم العربية. وكانت رائحتها أشبه ما تكون برائحة الثياب التي غُسلتْ للتو، ورائحة الأرض من حولها». وزادت ليلى. «كانت العزّة تعلو جسدَ أم حسين المستقيم القوي، وتعلو وجهها أيضاً. وكان في أنفها وفمها وعينيها الجميلتين ما نراه في كُلّ أولادها. وأذكرُ مُنذ طفولتي أنّها كانت ذات تجاعيد ولاسيّما في جبهتها. لقد قيل عن أم حسين الكثير وتستطيعون أن تقرأوا حياتها في وجهها. ولقد بدت على الدوام أكبرَ سنّا مما هي في الواقع، لكنّها كانت جميلة جداً حين ازدادت كِبَراً. وحين كُنّا صغاراً لم تُفارِقْنا، بل بقيت أُمّاً لنا.»

وحين قُتل ابنُ أمّ حسين، طارق، وكان في السابعة عشرة من عُمْرِه مع فدائيين آخرين في كمين في منطقة الكحّالة عام ١٩٧٠، ذهب غسّان ليؤاسي أمّ حسين. ويومها توقّفَتْ عن المجيء إلى بيتنا، فصار غسان يزورها في بيتها في برج البراجنة.

وإني لأذكر عظَم معاناتك، وصعوبةَ الترويح عنك في ذلك اليوم. ومع هذا فقد أردتِ للنضال أن يستمر، يا عزيزتي أم حسين. وحين جاءوا ببندقيّة طارق وعلّقوها على حائط بيتك تذكاراً من ابنك الحبيب، رفضت ذلك وأعدْتَها إليهم قائلةً: «أعطوها لشاب آخر ليُكمل نضال طارق من أجل تحرير فلسطين.» وحين أنْجَبَتْ ابنتُك صبيّاً بعد شهرين، أسمتْهُ طارق، لكنّها في البداية أسمتْهُ «أبو سمرة» أمامك فقط!

ولبِسْتِ الثيابَ السودَ زمنا طويلاً جداً. وذات يوم أتاك صديقٌ وقال إنّهُ رأى طارق في المنام يقول: «أنا أتعذّب لأنّ أمي لا تقدر على فُراقي. فهي ما تزال تلبسُ ثوبَ الحداد. أخبروها بأنّي شهيدٌ، فعليها أن تكفّ عن ندبي وتتركني بأمان». وإذّاك، خلعتِ ثيابَ الحداد وطلبتِ من بناتك أن يحذين حذوك. وما لبثتِ أن استعَدْتِ قوتّك، فعُدتِ إلى العمل في بيتنا وعادت إليك روحكِ الإنسانية البهيّة.

وكان كُلّ شيء فيك يشعّ دفئاً: عيناك الجميلتان، وضحكتُك الخلابة، ويداك الخشنتانَ الكبيرتان، وعناقاتك، وعزّتُك، وحُبّك لغسّان ولي وللأطفال...

وحين جرى اغتيال حبيبنا غسّان وحبيبتنا لميس صبيحةَ الثامن من تموز عام ١٩٧٢، كنت معنا. كانا قد قبّلانا قبل رحيلهما بدقائق، وكُنت في المطبخ، حين دوّى الانفجارُ الهائل، فركضتِ إلى الشارع معي، وغطّيت جسديهما بالشراشف...

وخلالَ الجنازة في شوارع بيروت، التزمتِ بالبقاء إلى جانبي طَوالَ الوقت. ومنذُ ذلك اليوم بقيتِ قريبةً مني ومن فايز وليلى. وصرتِ أُمّنا العربيّة المخلصة، فأحببناك كثيراً وأهديتناَ حبَّك وكرمَك الواسع. وكنّا نقضي الساعات في الحديث عن غسّان وفي استعادة صورته، فتُخبرينا المزيدَ عن بلدته عكّا وعن فلسطين.

ولقد رافقك ابنُك نادر إلى منزلنا عدة مرّات، وأحياناً كنت تأخُذين فايزَ إلى بيتك الصغير في المخيم، فأحبّه وقال لي في يوم من الأيام: «بيتها كالواحة مليء بالزهور الجميلة». وصار فايز ونادر صديقيْن.

وأذكرُ أنّ غسان دعا صحفياً مصرياً للغداء في بيتنا. فلم يُصدّق أنّ أم سعد شخصٌ من لحم ودم، إلى أن تكلّم غسان معهاأمامه قائلاً: «أنتِ أمّ فلسطينية حقيقية، ياأم حسين، وأنت على استعداد لأن تهبي أولادك للثورة». ثُمّ راح غسان يُعدّد أسماء أولادها واحداً واحداً، وكانت أم حسين تهزُّ رأسها في كل مرّة. ولكنّه حين ذكر اسمَ نادر – ابنها الأصغر– قالت: «لأ. مش هو. هو بيعيش وبيشوف فلسطين مُحرّرة».

ووقع الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، فترك نادر دُبي وسافر إلى سوريا، ومنها سار على الأقدام وعبْرَ الجبال وخلْف خُطوط الأعداء فوصل إلى برج البراجنة الذي كان قد تدمّر جُزئياً. ففرحت به أم حسين، لكنّها خافت أن تفقدهُ، وبكتْ حين عانقتْه.

عام ١٩٨٣ قُتلَ نادر في غارة اسرائيلية على قاعدة للفدائيين في الجبل.

وأخبرنا طارق وميسا، وهما اثنان من أحفاد أم حسين، ما يلي:«حين قُتلَ عمّنا نادر ذهبنا إلى بيت جدتنا. كانت تجلسُ تُحدّق في الفراغ بصمت، فلقد بكت حتى لم تبقَ دموع. كلّ ما قالتهُ هو أنّ طارق مات ونادر مات ايضاً، فلْيُلْهمنا الله الصّبر. لقد بكتْ من غير دموع؛ فلقد احترق قلبها».

حين قُتل نادر، تحطّم شيء ما فيك يا عزيزتي أم حسين. لكنّ الجميع أحبوك، فأعادوا إليك الحنانَ الذي كنتِ قد أعطيتهم إيّاه خلالَ حياتك الصعبة؛ فكان

اشتقنا لأيامكم

ليلى غسان كنفاني

قالوا: ماتتْ أم حسين.

وقالوا: ارتاحتْ.

وقالوا: نيّالها! راحت عند طارق وغسّان.

وقالوا أشياء كثيرة، وقد تكون صحيحة كلّها. ونعصر دماغنَا كلَّ يوم لنفكّر بتركيبات وكلمات جميلة تعيننا على تحمُّل الواقع. فلقد متِّ يا أم حسين، وماتتْ معك فلسطين، وماتت الثورة، ومات كلّ الخير والأمل للمرة الأخيرة.. انتهى كلّ شيء.

كم كنت تعشقين فلسطين. وكم كنت تتحدثين عنها وتشتاقين إليها. طوال ٤٥ عاماً وأنت لا تعرفين أنّك كنت أنت فلسطين يا أم حسين. أتشرّفُ بأنني عرفتك. واليوم حان وقت عودتك لتلتقي بأطفالك وحبايبك. فهاإنَّ اليوم الذي بذلت حياتك وأنت تكافحين من أجله قد جاء. لقد «تحرّرْت» يا فلسطين، ولن نراك بعد اليوم! والعَتْرة على من لا يعرفك.

كم سنتحدّث عنك وكم سنشتاقُ إليك!

ديري بالك على حالك. وسلامي إلى لميس، وطارق، وزياد، والبابا. وخبّريهم أنّنا اشتقنا إليهم... واشتقنا لأيّامهم.

الشباب – أصدقاء طارق ونادر – يمرّون عليك ليعانقوك وليجلسوا معك وليستمعوا إلى نصائحك. وكنت تُخاطبينهم بـ «يمّا»، فقد كنت ترين فيهم حبيبيْكِ «طارق» و«نادر».

صحيح أنّك فقدت ولديْك، لكنّه ما زال لديك ثمانيةٌ آخرون، وحوالي ثلاثة وخمسين حفيداً، وأكثر من عشرة أبناء أحفاد بقوا جميعهم على قيد الحياة. ولقد عشْت حتى يومك الأخير مؤمِّلةً أن يعودوا يوما ما إلى فلسطينك الحبيبة.

وتوقفت عن العمل معنا في المنزل. وكُنتُ أزورك، بمعيّة ليلى وفايز. ثم صرت تأتين إلينا فتقضين بضعة أيام في منزلنا. وكنّا نجلس على شرفتنا، نشرب القهوة ونتحدث عن أحبّائنا الّذين كفُّوا عن أن يكونوا بيننا؛ وكنت كثيراً ما ترينهم في أحلامك فتُخبرينا كلَّ شيء عنهم.

وذات يوم حملوك إلى المستشفى بعد أن أُصبت بالسكّري إصابةً خفيفة. وزرناك، أنا وليلى، فقلت لنا إنّ غسان عادك في الحلم وقال لك: «يا أم حسين، اهتمي بآني وبليلى وفايز. هم بحاجة إليك» وقلت لنا: «وجلب لك، يا آني، حقيبةً بيضاء، وجلب لليلى جزداناً».

وزرتك أنا وليلى في منتصف تمّوز الماضي، وكنت سعيدةً وراضية. فقد جاءتك واحدة من بناتك – وكانت تسكن في دبي – للمرة الأولى منذ سنوات كثيرة، لتقضي شهراً كاملاً معك. وكنت تجلسين، يا عزيزتنا أم حسين، كالملكة يحفُّ بكِ أولادكِ وأحفادك وعددٌ من أبناء أحفادك وجيرانك وأصدقائك. وكانت حفيدتك الصُغرى «آمنة» – ابنة «سعد»، وقد وهبوها اسمك – جالسةً في حضنك، أو قريبةً منك إلى جانب أخويْها «طارق» و«نادر» وأُختها نادرة التي تكبرها سنّاً.

وأذكرُ أنّكما مرضتما – أنت «آمنة» وحفيدتُك «آمنة» – قبل عام ونصف العام. وكنّا خائفين ألا تعيشا. لكنّكما تماثلتما للشفاء معاً واستعدتِ يا أم حسين شيئاً من قُوّتك وروحك الرائعة.

ووعدتني أن تأتي وتقضي أياماً عندنا ما إنْ تعود ابنتك إلى دُبيّ، وقلت لي إنّ لديك الكثير من الأخبار؛ فلقد رأيت غسّان مرّةً أُخرى في المنام. وأخبرت ابنك، قبل يومين من وفاتك، أنّك تتطلعين للسكن معنا بضعة أيام في الأسبوع التالي. لكنّ قلبك توقّف عن النبضان في الصباح الباكر من العاشر من آب.

لقد كانت حياتك الطويلة حاشدةً بالمصاعب، وحاشدةً بالأمومة أيضاً. وإنّهُ لمن دواعي الارتياح أن نعلم أنّك مُتِّ من دون أوْجاع. سنفتقدُ حنانَك وحبّك، لكنك ستبقين دوماً في قلوبنا، يا حبيبتنا أم حسين.

حين ذهبنا لعزاء عائلتك الكبيرة، قال ابنك «سعد»: «أُمّنا سعيدةٌ الآن، فسوف يتسنّى لها، أخيراً، أن تلتقي من جديد بطارق ونادر وغسان ...».

التماهي المستحيل

س.س.إ

أم حسين

اعذريني لأنّي لم أزرك مجدّدا كما وعدتُ. لكنّي كنتُ أذكرك أحياناً، وأعد نفسي بالزيارة، ثُمّ أخلف الوعد.

في المَرّة الأخيرة التي رأيتك فيها، كانوا قد ركّبوا لك طقم أسنان جديدة، فبَدَوْت شابّة في الثمانين. وحكيت عن غسّان كنفاني وعن فلسطين كأنّ موتهُ واغتصابها وقعا منذُ يوم أو بعض يوم.

اعذريني مرّة ثانية لأنني أُصرُّ على أن أراك أكبر ممّا كُنْت، رغم أن كتّابنا العرب قد أرهقونا حين لم يكفّوا عن اعتبار المرأة رمزاً: للأرض حيناً، وللثورة حيناً، وللبطريركية العربية حيناً ثالثةً.

لكنّك يا أم حسين لم تستطيعي، أنت نفسك، إلا أن تتلبّسي الرّمزَ: فصرت «أم سعد»، طوعاً واختياراً!

ولا شكّ، ياعزيزتي، أنّ الرمزَ يكبر فيكِ كُلّما تساقطت «الرموز»!

فسلاماً على أسنانك الجديدة، وسلاماً عليك حيّةً وميتةً ورمزاً.